المحاضرة الثانية:

تاريخ العلم في الحضارات الميزوبوتامية

توطئة: (التحديد التاريخي والجغرافي)

يجمع المؤرخون على أن الحضارات الميزوبوتامية (**les civilisations mésopotamiennes**) هي أقدم الحقب التاريخية التي نقلتها لنا آثار الإنسان القديم، ويستخدم مصطلح الحضارات الميزوبوتامية للإشارة إلى ما خلفه الإنسان من أشكال حضارية في منطقة ما بين النهرين (دجلة والفرات) وهي اليوم منطقة تضم أجزاء من العراق والأردن وسورية وتركيا وهي منطقة تتميز بخصوبة الأرض وتوفر المياه وهو الأمر الذي سمح بظهور أولى التجمعات البشرية الزراعية. يؤكد ويل ديورانت في كتابه الموسوم بعنوان "قصة الحضارة" على أن الإنسانية بدأت بالكلام والمدنية بدأت مع الزراعة في حين أن الصناعة بدأت باكتشاف النار[1] وهذا يعني أن بلاد مابين النهرين هي مهد مدنية الإنسان باعتبار شعوبها هي أولى الشعوب التي مارست الزراعة.

تعود بدايات تاريخ الحضارات الميزوبوتامية إلى حوالي الألف الثالث قبل الميلاد (3000 ق م) في المنطقة المسماة سومر[2] والتي نشأت على أرضها أشهر الحضارات الميزوبوتامية وهي الحضارة السومرية والحضارة الأكادية والحضارة الآشورية والبابلية إضافة إلى الحضارة الكلدانية وقد تميزت كلها بارتقاء الانسان الفكري والعملي في شتى المجالات والميادين أهمها الزراعة

---

[1]- ويل ديورانت، قصة الحضارة، تر: زكي نجيب محمود، دار الجيل للنشر، بيروت، ط1، 1988، ص 22.

[2] - https://bit.ly/3MZFDjE, accessed on 25/10/2022.

والملاحة والبناء والنحت ناهيك عن الرياضيات والفلك والطب. إن ما خلفه الإنسان في بلاد ما بين النهرين يثبت أن هذه الحضارات هي أصل الحضارة البشرية ومهد المدنية الإنسانية؛ وبغض النظر عن الجانب العملي ما هي أهم الأفكار العلمية التي أدركها الإنسان في هذه الحضارة خاصة في المجالات الثلاثة المذكورة سلفا وهي الطب والفلك والرياضيات؟

1-الكتابة:

ما كان لنا معرفة التراث العلمي لأي حضارة دون توفر ناقل يمكننا من الاطلاع على هذا التراث، والأكيد أن الكتابة هي ناقل التراث الدقيق الحامل لكل تفاصيله، فالكتابة هي الوسيلة الوحيدة التي مكنت حضارات الشرق القديم من حفظ أفكارها والتعبير عن مدنيتها. على هذا الأساس وقبل الحديث عن العلوم التي مارستها الشعوب الميزوبوتامية كان لابد من التساؤل عن الكتابة؛ هذا من جهة ومن جهة أخرى هل يمكن اعتبار الكتابة علما؟ بكل بساطة نعم، الكتابة علم وفن في الوقت نفسه؛ نقول ذلك لأن الكتابة تحتاج إلى درجة كبيرة من الوعي لذلك هي علامة فارقة في تاريخ الإنسانية ودليل على مدنية الشعوب وتحضرها. لا يختلف اثنان على أن الكتابة علم قائم بذاته بدليل جاك ديريدا الذي أورده في كتابه " في علم الكتابة "والمتمثل في أنها تستحضر اللوغوس بل إن استحالة إمكانية علم الكتابة حسب رأي ذات الفيلسوف يزعزع إمكانية العلم نفسه[3].

[3]- جاك ديريدا، في علم الكتابة، تر: أنور مغيث ومنى طلبة، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط2، 2008، ص 173.

تعتبر الكتابة المسمارية هي التقنية القديمة في ممارسة هذا العلم وهي تقنية تعتمد على أداة حادة تشبه المسمار كانت تستخدمها الشعوب الميزوبوتامية في النقش على الألواح المصنوعة من الطين ثم تركها لتجف، وقد استخدمت هذه الطريقة أو التقنية لكتابة اللغة الآشورية والأكادية وكذلك البابلية[4]. وقد ساهمت الكتابة وبشكل كبير في نقل التراث الشرقي القديم عموما والتراث السومري والبابلي بشكل خاص، كما أن ممارستها كتقنية تثبت المستوى الذي بلغه العقل في هذه الحضارات، وفوق كل ذلك تعتبر النصوص السومرية القديمة وخاصة الأساطير من أرقى النصوص باعتبارها فنا يعكس مخيال هذه الشعوب وذوقها. أما الأهم بالنسبة إلينا فهو إدراك الإنسان في هذه الحضارات وتحصيله لأحد أهم العلوم وهو علم الكتابة والذي بفضله سيتم نقل العلوم كلها عبر التاريخ.

2-الطب والخيمياء :

تستخدم اللغة الأكادية القديمة لفظ "niss" للدلالة على الطبيب وهذا ما يثبت أن السومريون القدامى قد ميزوا بين الطب والسحر وكانت معرفتهم بالعقاقير متقدمة جدا[5] وهذا الرأي إنما يؤكد تطور الفكر السومري ومدنية شعوب هذه الحضارات. إن الحديث عن تطور الطب والتداوي في الحضارات الميزوبوتامية يجرنا إلى الحديث عن قدرة شعوب هذه الحضارات على اكتشاف العقاقير والمستخلصات المستخدمة في الاستطباب، ونعلم جيدا أن هذا العمل إنما هو تجسيد لأفكار الكيمياء الأولى والتي نصطلح عليها بالخيمياء **(l'alchimie)**. الكلام عن

---

[4]- حلمي محروس إسماعيل، الشرق العربي القديم وحضاراته - بلاد ما بين النهرين والشام والجزيرة العربية القديمة-، مؤسسة شباب الجامعة للنشر، الإسكندرية، ط1، 1997، ص 115.

[5]- قيس حازم توفيق، العلوم والمعارف في حضارة وادي الرافدين ووادي النيل في العصور القديمة، آشور بانيبال للثقافة، ط1، 2018، ص 22.

الطب والخيمياء في حضارات بلاد الرافدين القديمة إنما هو في الحقيقة حديث علمي يتأسس على معطيات أركيولوجية تؤكده، فقد عثر في هذه الحضارة على رقيم كتبت عليه نصوص طبية وآخر يحمل خاتم طبيب يرجع تاريخه إلى 3000 سنة ق م[6] وكان قد نقش على هذا الخاتم اسم الإله "إيرا" وهو إله المرض والوباء عند السومريين القدامى.

خلاصة:

نستنتج من كل ما سبق أن حضارة بلاد الرافدين جسدت ومن خلال تاريخ العلم قدرة شعوب هذه المنطقة على الارتقاء بالعقل البشري إلى مستوى تمكنت من خلاله البشرية قطع أشواط كبيرة على مستوى التأسيس للحضارة البشرية التي وصلت اليوم إلى ما وصلت إليه من علوم وفنون وتقنية تجسد ارتقاء الإنسان واعتلائه هرم الكائنات بلا منازع. والمميز في تاريخ علوم الحضارات الميزوبوتامية من بين كل العلوم هو قوة العقل الرياضي لدى الإنسان في هذه الحضارة مقارنة بالعلوم الأخرى، فنظام العد الستيني يعتبر طفرة فكرية ودليلا على براعة الفكر الشرقي القديم عموما والبابلي على وجه الخصوص.

[6]- المرجع نفسه، ص 23.